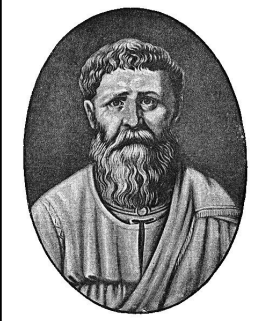


## القديس أوغسطينوس واللاهوت السياسي

الأب حبيب هرمرز النوفلي – لندن آذار 2008

يعتبر القديس أوغسطينوس Augustine (القرن 5) أبو اللاهوت السياسي، حيث عاش في فترة غزو الوثنيين روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية والمسيحية آنذاك وإنهيار أحلام الكثيرين في دولة مسيحية، فكتب كتاباً مهماً لا زالت معتمدة حتى اليوم منها: مدينة الله. لقد قدم أقدم شكل لللاهوت السياسي رغم الجذور القديمة لهذا اللاهوت كما أسلفنا. ساستعرض خلاصة عمله عن مدينة الله، ثم خلاصة أفكاره مع تحليل لأبرز اهتماماته آنذاك.



القديس أوغسطينوس

قال البعض من المؤرخين إن الإمبراطورية الرومانية قبلت المسيحية كي تمثل الإيمان المسيحي وفق الثقافة الرومانية يجعله ديناً لكل الإمبراطورية. وينقس الوقت أكد البيلاجيون على خطية الرومان كسبب لإنهيار الإمبراطورية. ولكن أوغسطينوس رفض الفكرتين وقال إن السبب هو رفض عيش الإيمان بكونه قبول الخلاص بالرب يسوع وفق الإطار الشخصي العام، فالفكر اليوناني والروماني المعبر عن إيمانه بالميثولوجيا (علم الأساطير) والسياسة يتناقض مع المسيحية عقلياً وادبياً ودينياً. فمدينة الله يجب أن يتأصل بناؤها بالمسيحية عبر عيش حياة جماعية مبنية على تذكر موت وقيامته الرب وتوقع مجيئه.

### مدينة الله السماوية ومدينة الإنسان الأرضية

كتب القديس أوغسطينوس كتابه المهم هذا بعد سقوط روما بيد الأعداء الوثنيين سنة 410 م بقيادة الغوطيين (Visigoths) مما بعث اليأس والإحباط لدى الشعب. أراد أن يعالج علاقة المسيحية ببقية الأديان والفلسفة والدولة. قال إن هذا الإنهيار للمدينة الأرضية هو علامة إنتصار رمزي للإيمان بالدعوة إلى إنشاء مدينة الله. لقد كانت أفكاره متجهة نحو السماء عبر عمل يتسم بالروحانية أكثر من كونه عملاً سياسياً. لقد أكد على الإهتمام بمفهوم مدينة أورشليم العليا أكثر من الإهتمام بمدينة السياسيين الأرضية. ورغم اعتباره الكنيسة مركزاً لمدينة الله، لكنه لم يهين أي محل معين لها ضمن المجتمع ولا عن مؤسسات.



زعيم الغوطيين  
Visigoths

لقد ابتعد عن أوسابيوس عندما اعتبر مملكة الأرض مملكة إبليس حيث لا عدالة إلا في مملكة الله السماوية. إن مملكة الله يمكن أن تبدأ هنا على الأرض بهمة المؤمنين. ولكنها ظل لتلك. وتمنى من الحكومة أن تطيع الله، ولكن لم يطالبها أن تحقق مطالب الإنجيل، أو ترتبط به، بل إن تتجدد نحو الأفضل. للدولة دعوة إلهية كي تحقق مقاصد الله على

الأرض حتى لو كانت الدولة وثنية.

بخصوص السلام، ميز بين السلام المسيحي والسلام السياسي. الأول مملوء بالرجاء (اعتبره سلام بابل) لأنه مؤقت بانتظار تحقيق أهدافه.

قسم القديس عمله إلى 22 كتاباً استعرض، وحلل، وقيم بطريقة نقدية حال الشعوب آنذاك مما يشكل مصدراً لا يعوض لفائدته الكبيرة لنا اليوم فما أشبه الليلة بالبارحة:

- أ- يلوم القديس الوثنيين الذين يساهمون في خراب العالم لكوارثهم العديدة، والتي كان تدمير روما آخرها، ومنعهم المسيحيين من التعبير عن إيمانهم. تحدث القديس عن البركات والأمراض التي تصيب الصالحين والطالحين. أخيراً يوبخ أعمال الشعب التي يقوم بها مستغلوا فقدان السلطة والقانون فيعوثون فساداً.
- ب- يستعرض الكوارث التي حصلت في الماضي قبل إنتشار المسيحية بسبب إنتشار الإثم والرذيلة والعلاقة بألهة كاذبة.
- ت- يتحدث عن الكوارث الأخلاقية والروحية التي أصيب بها الناس بسبب التمسك بألهة باطلة قبل المسيحية وعجزها عن إغاثتهم.

- ث- يثبت أوغسطينوس هنا إن دوام الإمبراطورية لم يكن بسبب آلهة المشتري أو الآلهة البقية بل بالله الواحد الحقيقي والذي بقوته تؤسس وتبقى المملكة الأرضية.
- ج- يناقش القديس مذهب القدرية الذي من خلاله فسّر البعض أسباب إنهيار روما، فيرفض ذلك. يؤكد عدم وجود تناقض بين علم الغيب الإلهي وإرادة الإنسان الحرة. يسرد أساليب الرومان القدماء في إحلال أرائهم بدل إرادة الله كي يزدادوا قوة وسيادة على العالم، فرفضوا الاعتراف به.
- ح- يحتاج من يعتقد أن عبادة الله هي لأجل الفائدة الدنيوية. هنا يكرس القديس الكتب الخمسة القادمة لدحض هذا الاعتقاد. يناقش اللاهوتي الوثني فارو بخصوص مصداقية عمله. ولكنه يتبنى تقسيم فارو لللاهوت الي ثلاثة أقسام: مدني، وطبيعي، وإسطوري، ويؤكد أن لا الإسطوري ولا المدني يستطيعان أن يصنعا حياة الغد.
- خ- يظهر كيف إن الحياة الأبدية لا يمكن الحصول عليها من خلال عبادة نجوم السماء.
- د- يناقش أوغسطينوس النوع الثالث من اللاهوت، أي اللاهوت الطبيعي، ويتساءل فيما إذا كانت عبادة آلهة الطبيعة لها فائدة في ضمان الحياة الأبدية. هنا يستخدم الطريقة الإفلاطونية لسهولة ولقربها من الحقيقة المسيحية. يدحض قديسنا عبادة الشياطين باعتبارها رسل وسطاء بين الآلهة.
- ذ- يطلب القديس من الناس شجب عبادة الشياطين ماداموا (أي الشياطين) يعبروا عن أنفسهم بألف طريقة سيئة. كما يحتاج من يعتقد بوجود شياطين أشرار وآخرين أخيار، فيؤكد أن المسيح وحده يملك منح بركة الحياة الأبدية.
- ر- يتحدث عن الملائكة بكونها مكرسة لله كي يخدموه. والتضحية هي السبيل لنيل هذا الشرف عبر تطهير النفس.
- ز- في هذا الجزء يبحث القديس في أصل المدينتين اللتين تكونتا بسبب انفصال الملائكة الأخيار عن الأشرار. كان البحث هذا مجالاً له ليبحث في أصل العالم كما هو مذكور في الكتاب المقدس.
- س- يفترض حقيقتين حول الملائكة، فيتساءل هل هناك حقاً منذ البدء ملائكة أخيار وآخرون أشرار؟ ثم يبحث في الإنسان المخلوق من قبل الله.
- ش- يبحث في كون الموت نتيجة لخطيئة ابينا آدم
- ص- يعتقد أن آدم كان بإمكانه الإنجاب من حواء بدون الشهوة. هنا الشهوة هي نتيجة للخطيئة.
- ض- يبحث في نمو وتقدم المدينتين، ولذلك يتناول سفر التكوين من قصة قايين وهابيل إلى الطوفان.
- ط- يبحث في سفر التكوين من نوح إلى إبراهيم، ثم من إبراهيم إلى ملوك إسرائيل.
- ظ- يبحث في سيرة الملوك والأنبياء من صموئيل إلى داود وحتى يسوع والنبوءات عنه، وأخيراً سفر المزامير، وانشيد سليمان، وكيف يقصد بها المسيح والكنيسة.
- ع- يتابع القديس تاريخ المدينتين من إبراهيم وإلى نهاية العالم، حيث يلمح إلى النبوءات الخاصة بالمسيح حتى بعد تأسيس روما (ق 6 ق. م) مثل النبي هوشع، عاموص، أشعيا، ميخا، والبقية)
- غ- يناقش نهاية المدينتين متضمناً أقوال الفلاسفة وجهودهم العقيمة عندما يؤكدون على السعادة في المدينة الأرضية. فيؤكد على السلام والسعادة في السماوية أو بين اتباع المسيح الآن وإلى الأبد.
- ف- يتأمل في يوم القيامة وما كتب حوله في الكتاب المقدس.
- ق- يتأمل في نهاية إبليس زعيم المدينة الأرضية، حيث ينال العقاب الأبدي ثم يجابو حجج المعارضين لذلك.
- ك- يعالج نهاية مدينة الله أي السعادة الأبدية للقديسين. إن الإيمان بالقيامة مؤسس وواضح والعمل يتضمن كيف إن القديسين يكتسبون بالأجساد الروحية الخالدة.<sup>1</sup>

## نظرة إلى أفكار أوغسطينوس

لقد فصل القديس أوغسطينوس (354 - 430) بين المملكة الأرضية والسماوية، وركز على المفهوم الكتابي للخطيئة الأصلية ففي البدء كان كل شيء حسن، لا بل حسن جداً كما قال يهوه عدة مرات في سفر التكوين (فص 1)، ولكن تجاوز الإنسان، وأوصله إلى هذه النتيجة المؤلمة عبر التاريخ إلى حد يعتبر تاريخ للخطيئة.

في مدينة الله إشارة إلى ان الإمبراطورية البيزنطية قبلت المسيحية كفرصة لهضم المسيحية في الإمبراطورية، بينما البيلاجيين اكدوا على الخطيئة ورفضوا كلياً كون الإمبراطورية مصدر لها، وبالنتيجة قالوا يمكن إستحداث مجتمع خال من الخطيئة.

<sup>1</sup> <http://www.newadvent.org/fathers/1201.htm>

ناقش ثلاثة تمييزات لاهوتية: الميتولوجية، والمادية، والسياسية (حسب الفكر اليوناني) أو اعتبرت لاتينياً مثل: لاهوت قصصي، أو طبيعي، أو مدني. قال القديس أوغسطين إن التمييزات الثلاثة لدى الإثنيين هي عملية عقلية، أدبية، ودينية كاذبة.

لقد فهم أوغسطين، واثنايوس وعدد من اللاهوتيين اليونان واللاتين، الشهادة والنسك جدلياً. فالشهداء هم مع المسيح القائم من بين الأموات، والراهبات والرهبان هم أعضاء الكنيسة، يشجعون العمل الجماعي، ويعلمون عالم امبراطوري أيضاً عندما يديرون الدول أو المدن المدمرة. والنسك لا يبطل الجسد بل ينقي رغبة الإتحاد بالله<sup>2</sup>

كان القديس متشامماً من السياسيين وسلطتهم، حيث لم يكن له رجاء فيهم. ومع ذلك أكد على العمل مادام هناك شيء يجب الدفاع عنه حيث من الضروري التفاضل آنذاك. فحسبه ليس الحب كل شيء ما دام يحتاج إلى السلام والرجاء كي ينمو.

اعتبر إن الشر حقيقة لا يستطيع الإنسان لوحده إصلاحه. وهو قوة غير طبيعية في الإنسان يجب إحتواءها. السلطة ضرورية يجب أن تحترم، لأن البشر لا يستطيعون التعامل مع بعضهم البعض بحب تلقائياً.

### المدينة الأرضية

بخصوص المدينة الأرضية، فقد اعتبر أوغسطينوس وجودها يؤشر دائماً بقتل قايين لأخيه هابيل. ولكن لدى الناس فيها ضمير طبيعي مكتوب في قلوبهم، هذا الضمير يجعلهم يفكرون في معنى الحرب من خلال اللغة التي قد توحدهم، أو تفرقهم. هذا التفريق يتم من خلال اللسان، الذي هو آلة للسيطرة. وهكذا الحال مع مسائل مثل الحرية الإنسانية والإرادة الحرة، العدالة والسلام. يقول القديس إنه لا يوجد إنسان شرير بالطبيعة، ولسنا سياسيين بالطبيعة، ولا يوجد إنسان له سيطرة طبيعية على أخيه، كما إن الله يحب التنوع.

يقول القديس إن الحياة الإجتماعية مملوءة من الأمراض، وحياة الحكيم يجب أن تكون إجتماعية كي يجد الأمان على الأقل في البيت وإلا كيف يجده في المدينة، أما إذا كان مهاجراً فالحالة أصعب. يتساءل: لماذا أحياناً التعامل مع الكلب هو أسهل من الإنسان. لذلك يشدد على حسن إختيار اللغة كي تساهم في نشر المعرفة. هنا يشير إلى الطفل كونه مدرسة نتعلم منها، ولا نقول أننا نعرف الحقيقة، فعلياً معرفة كيف سنعرفها ونقولها، وإلا فعلى أي أساس نفترض إن الناس يصدقوننا، فيتسامى القديس ويقول إن من يفتح أذنه للمحبة يستطيع أن يسمع بقلبه ويحفظ في ذاكرته.

الحقيقة لا تعرف لغة، لأن لغتها هي لغة الله، لغة المحبة. والمحبة تتحدث بكل اللغات، وليس لها وقت محدد. ولكن لأننا مرتبطين بالزمان والمكان، فالحقيقة تظهر بعدة أشكال وتتشوه. المحبة مثل عظام الإنسان تحتاج إلى لحم كي يحيا الإنسان. وعظام المحبة هي آيات الكتاب المقدس.

الكنيسة هي جماعة المؤمنين الساعين للعيش بالفضائل. ولكن أبناء الكنيسة لهم أجساد. وحياة الجسد تحرق وتشتعل. الشخص مساق بالجوع، بالحاجة، بالغيرة، وبالإحباط لأنه لا يستطيع ان يعبر عن نفسه بشفاافية وجعل الآخر يصغي إليه. هذا كله بسبب الرغبة في التمتع والسرور.

### الفلسفة والثالوث

أحياناً يستخدم الفلسفة في شرحه فيقول: يثق الشخص بأنه موجود وله وجود (أي كيان) فمثلاً يشعر بأنه يرتكب خطأ، أو عندما يشك في شيء ما. الحقيقة تكون مخفية، ولكن الشخص يشعر بها ولا يستطيع تجاهلها فما العمل؟ العقل يعمل ضمن حدود الفضاء والزمان في جو ملون، ولكن أصل الألوان واحد. هذا، حسب أوغسطينوس، يساعدنا على فهم الثالوث، حيث نستخدم كلمات لذلك مثل إقنوم Hypostasis وجواهر Essences، فيقوم القديس بتوضيح فهم الثالوث للمؤمن من خلال العقل، أو العكس حيث يقول: نستطيع استخدام جسدنا للصالح والطالح، للسفر، للمعرفة، للإستتارة، لتمييز العلاقة مع الخلائق. لذلك لا نستطيع تجنب الخوف مثلاً ولا الشجاعة ولا التعب أو الخطر. وبما أن العقل ليس له جسد، فإنه يسعى إلى التقييم والتأكيد والرفض... إلخ كي يحكم في حالة الفرد أو الجماعة.<sup>3</sup>

<sup>2</sup> Joseph A. Komonchak, The New Dictionary of Theology, Dublin, 1987, p772-778

<sup>3</sup> أرجو الإطلاع على رسالة البابا يوحنا بولس الثاني حول القديس أوغسطينوس<sup>3</sup>

يأخذ القديس مثال ويقول: لو صنع شخص خزانة فإنه يعرفها في ذهنه أولاً ولكن ما يصنعه ليس تماماً ما في ذهنه. هكذا يمكن فهم الثالوث الأقدس عن طريق التخيل Imagin والنعت Name والمحبة Love، من خلال محبة الله نحب الجار، إذا تناسينا محبة الله، يمكن أن ننسى جارنا، فالذكرى هي الأساس. نحب رغبتنا من خلال معرفة حقيقية، ثم نشناق إليها. لدينا ذاكرة وفهم وإرادة، فنحن نفهم بأننا نفهم ونريد ونتذكر، لكن الجسد محدد بالذاكرة، فيحتاج الى العقل. إن هذا يتطلب الإنتباه لأن العقل ضعيف فلا يستطيع ملاحقة كل شيء (ملاحقة النشاطات اليومية مثلا). فماذا سيحصل إذا تحدد العقل والجسد؟

## الشر



البشرية ستحيا حينذاك من خلال الشركة. هي ليست جزر معزولة. ولكن الشركة دون الله قد تتحول الى توتاليتارية (أي شر مطلق Absolute Evil)، أو شر مبتذل. الشر يكون مكشوف القناع ولكن ليس له جسد ولا وجود لـ Entity فلم يأتي الى العالم بواسطة الله. الشيطان دخل أولاً من خلال المخيلة عبر الفن غير الورع وصار إله من خلال الإنسان، ولكنه ليس إله كل إنسان بل إله المؤمن بالرسام. إنه إله الحياة المكروهة. الله خلق العالم ورأى أنه حسن جداً، والصالح لا يولد الشر. الشر هو مبدأ

أساسي في كيان الشرير. والكيان هو من الخطيئة لا من الطبيعة، لأن الطبيعة صالحة. فإذا كان الشر من الطبيعة لا داعي للشر أن يؤكد نفسه. فالحقيقة هي أن الشخص لا يجب أن يحاول إيجاد سبب فعال لإختيار الخطأ. الشر ناقص والشخص يسقط لأنه يلوث نفسه، فلا وجود لطبيعة مثل الشر، إنه إسم لحالة الحرمان من الخير.



يستمر القديس في تأملاته ويؤكد عدم وجود عقوبة

إلهية لمن يخطأ بالطبيعة، ولكن لمن يخطأ بالإرادة. فعندما يجعل الشخص ذاته مركزاً له، فإنه يخطأ بخطيئة الكبرياء.

## لويثان

لقد افترضت القصص الميثولوجية الفوضى في البداية. فكانت المدن علامة على النظام. كذلك فعل توماس هوبز حيث بدأ بالفوضى، فمن يستطيع السيطرة عليها؟ لا يوجد سوى لويثان Leviathan (من كلمة لوي اي الملتوي وهو الشخص الحيال والمراع والذي يصل الى السلطة بشتى الطرق معلناً الدكتاتورية). وقد يتم هذا من خلال الوحش الخرافي بهيموث Behemoth رمز الدكتاتور.<sup>4</sup>

الدكتاتور حسب الفيلسوف توماس هوبز هو ما رمز اليه وجود الوحش لويثان في الكتاب المقدس والذي لا بد منه لقيادة الناس رغم الشر الذي يكتنفه. ومن هذه الفكرة نبعت افكار اسطورية ربطت بقصص القديسين الأبطال امثال مار كوركيس وغيرهم.

يقول القديس أوغسطينوس إن سمة المدينة الأرضية هي الخطيئة. ولكن هذه الحقيقة يجب ان تدفعنا كي نعي كوننا محدودين، لا ان نتجاوز على الآخرين. والحل هو تغليب السلام على الحرب. هنا المحبة سمة الحياة كما فعل الله حينما احب العالم حتى بذل ابنه الوحيد كي ينقذ الإنسانية.

## الفقر

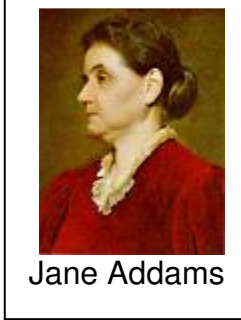
بخصوص الفقر، يعتبره أوغسطينوس نوعاً من القوة بدليل وجود المدينة الأرضية مثل سقوط الملائكة وابتعاد الناس عن الله. المدينتين لهما ارادات ورغبات. إنها تقود الى الموت لا للحياة الأبدية، حيث تقودان الى العصيان لا الى الطاعة، فتوقف نعمة الله عن الشخص وذاته، والشخص والآخر، والأمم والثقافات. لكن مهما كانت الأمة أو الثقافة، فإنها منقسمة مقياس الروح لا مقياس الجسد.

من جهة اخرى يقول اوغسطينوس إن النقي وغير النقي يدخل الكنيسة ضمن حدود الجماعات البشرية. ولكن في مدينة الله، هناك رغبة للعيش حسب إرادة الله، فكيف يحيا من يحيا الحياة الأرضية؟

<sup>4</sup> هنا نذكر فرويد الذي اعتقد إن قصة الأصول التي تتضمن الخوف هي نتيجة كون الأبناء في الماضي اكلوا أبيهم، فصارت عقدة الذنب من قتل الشيخ المهيم على القبيلة. فكان العنف محل العنف.

يتفاعل أوغسطينوس ويعتبر السلام المؤقت جيداً، سواء أكان سلام الجسد أو العلاقة مع الآخر. حسبه يجب 1- عدم الإساءة لأي شخص و2- مساعدة الآخر. إنها أخلاق الحاج في المدينة السماوية. أوغسطينوس هنا لا يلغي متطلبات المدينة الأرضية فحياة القديس كحياة أي مواطن هي حياة إجتماعية ولكنه يحب الله واخيه معاً.

هذا يجعلنا نعود الى موضوع الكومنويلث commonwealth (أي الخير للجميع حسب وصايا يسوع في الإنجيل) فحسب Scipio الناس متحدون في تحسبهم للحق، وتكوين جماعة لأجل الفائدة. وهذا ما لم تكن روما عليه بسبب الهيمنة والعدالة الكاذبة. فرغبتنا للعدالة تتطلب قوة اكبر من امكانيات الناس التي تجذبنا نحو المدينة الأرضية.



Jane Addams

أوغسطينوس يبدأ بالمحبة ووصية المسيح فلا احد يستطيع صنع الكومنويلث لوحده، فهو يبدأ من الرفقة والعائلة ثم القبيلة والمحبة الأرضية المهم بالسلام لا بالحرب. لقد كان تركيزه على قلوبنا المظلمة ولكن اليوم اصبحت تناقش كعلاقة دول كما إهتمت بها جين ادمز 1860-1935 Jane Addams

اللاهوتي الألماني ديتريش بونهوفر اللوثري النزعة، تأثر بجذرية أوغسطينوس، فواجه الهتلرية حتى الشهادة.

إذا يجب على المسيحي ان يكون ناشر سلام حتى لو صار علامة مخالفة كما قال البابا يوحنا بولس الثاني.



أكد ملبانك Milbank على الجانب الإجتماعي لحياة القديس مؤكداً إن أوغسطينوس إنتقد السلطة الرومانية لأنها لقنت الحب الذاتي والإنعزالية. وحسب ملبانك، فإن الإهتمام بالنفس والجسد يتضمن النظام والتماسك. من هنا الكنيسة وسيط بين الفرد والعالم، وليست ضد الدولة، مثلما المسيح وسيط بين الله والشخص. إذا هناك:

- 1- شكل مجهري وضخم للكون
- 2- لا توجد تبعية للجزء على الكل ولا العكس
- 3- هناك حضور للكل في كل جزء
- 4- وحالة ضمن تعاقب استحالة غير محدودة اكثر من كلية ثابتة

لقد تعجب أوغسطينوس من توسيع مفهوم العقوبة كونها مأساة خطيرة وعلى المسيحية أن تقلل من شأنها، حيث إن أي تجربة سلطة تتضمن الحيلة، وهذه ستغذي العنف الذي بدوره سيهدد ويدمر مبدأي أوغسطين: لا تؤذي وان تحب الله وقريبك.

لقد كتب أوغسطين جملة مهمة " إن الله صنع الإنسان الذي خلقه" هنا تأكيد على الفرد، وكون هناك تحول من الخلق الى الصياغة الأولى فرد والثانية من خلال الجماعة. لم يبدأ الله خلق البشرية من خلال نوع بشري معين أو فرد يحب الوحدة والإنعزالية، فالوصية تتضمن دعوة كثيرين الى الوجود لا لشخص واحد فقط.<sup>5</sup>

سيبقى لاهوت القديس أوغسطينوس منبعاً مهماً من منابع اللاهوت السياسي والفكر السياسي لا غنى عنه لكل اللاهوتيين والفلاسفة ومشرعوا الأنظمة التشريعية والتنفيذية عبر برلمانات العالم وهيئاته المختلفة.

<sup>5</sup> Jean Bethke Elshtain Augustine and the Limits of Politics Notre Dame Press, Indiana, 1995pp. 20, 39, 40, 53, 82, 86, 89